

الماء في إفريقيا البروقنصلية بين الأصول المحلية والتأثيرات المتوسطية

Water in Africa Proconsularis: between local origins and mediterranean influences

سليم سعيدي¹ ♦، عبد الناصر عمر²

¹ جامعة الحاج لخضر باتنة 1، salim.saidi@univ-batna.dz

مخبر: دراسات في التاريخ والثقافة والمجتمع

² جامعة 8 ماي 1945 قالمة، abdelnassero@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2024 / 09 / 01 ؛ تاريخ القبول: 2024 / 09 / 30 ؛ تاريخ النشر: 2024 / 12 / 01

المخلص باللغة العربية:

لا شك أن الماء هو المصدر الرئيسي للحياة، فلا يمكن لأي كائن حي أن يعيش في غياب الماء. لقد كان هذا العنصر الحيوي هاجس جميع المجتمعات البشرية عبر التاريخ، خاصة خلال فترات الجفاف الطويلة. لهذا السبب، لا نتفاجأ بظهور جميع الحضارات القديمة على ضفاف الأنهار والوديان، مثل الحضارة الفرعونية وحضارة بلاد الرافدين.

من خلال الماء، يمكن للإنسان أن يتطهر جسدياً وروحياً، ومن خلال الاستحمام في بعض الينابيع، يمكنه الشفاء من بعض الأمراض. لهذه الأسباب، كان الماء موضوعاً للتقديس والعبادة. عندما يحدث الجفاف وينفد الماء، يلجأ الناس إلى الاستغاثة بالآلهة من خلال تقديم القرابين لهم والدعاء إليهم، سعيًا لرحمتهم في هطول الأمطار وجريان الوديان.

ولدراسة هذا الموضوع، اعتمدت على جملة من المناهج، تمثلت في المنهج الوصفي لمعالجة الأبعاد الدينية للماء، والمنهج التحليلي للخروج ببعض النتائج.

الكلمات المفتاحية: الماء؛ عبادة؛ قداسة؛ إفريقيا البروقنصلية؛ العيون.

Abstract: It's undoubtedly that water is the main source of life, no living creature can live in the absence of water. This vital element has been the obsession of all human societies throughout history, especially during long periods of drought. That's why, we

are not surprised by the emergence of all ancient civilizations on the banks of rivers and valleys, such as the Pharaonic civilization and the civilization of Mesopotamia.

By water, a person can be purified physically and spiritually, and by bathing in some springs, he is cured of some diseases. For these reasons, water was an issue of sanctification and worship. When drought occurs and water runs out, people resort to appealing to the gods by offering sacrifices to them and supplicating to them, seeking their compassion by rain falling and valleys flowing.

To study this topic, I depended on a set of approaches, represented in the descriptive approach to deal with the religious dimensions, and the analytical approach to reach some results.

Keywords: Water; worship; sanctification; Africa Proconsularis, springs.

مقدمة:

ارتبط الماء بحياة البشر ارتباطا وثيقا منذ أن ظهروا على كوكب الأرض، وهذا لحاجتهم الدائمة والملحة له في كل مناحي الحياة: من شرب وطبخ وغسل، بل وتجاوز حضوره النفعي ليحمل أبعادا ذات دلالات روحية ودينية، إذ كان الماء المكوّن الأساسي في ملاحم خلق الكون والإنسان، فنسجوا حوله الكثير من الأساطير والقصص الخرافية، فاكتنسى هالة من القدسية لأنه أساس الخصوبة والنماء والرخاء، والمنقذ من الجفاف والعطش والفناء، وجعلوه رمزا للطهارة من الأرجاس والخطايا، فبالماء يتم التّعميد في بعض الديانات، وبه يغسّل الميت قبل دفنه، ورأوا في الفيضانات غضب من الآلهة على البشر فألّهوه وقدموا له القرابين و العطايا. فرادى وجماعات.

وتتمحور الإشكالية الرئيسية التي نطرحها في هذا البحث في السؤال الآتي: ما مدى أهمية الماء في الجانبين: الديني والصحي في إفريقيا البروقنصلية؟ وقد قادنا هذا الإشكال إلى طرح بعض التساؤلات الفرعية: لماذا قدّس الأفارقة القدامى الماء؟ وما هي أهم الآلهة التي عبدوها وكانت مرتبطة بالماء؟ وهل تعود تلك الآلهة لأصول محلية أم لتأثيرات أجنبية؟ كيف ساهم الماء في علاج المرضى في المنطقة؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات قسمنا البحث في العناصر الآتية:

- الماء وأبعاده الدينية.
- الماء وأبعاده الطبية.
- أهم الآلهة المرتبطة بالماء.

1- الماء وأبعاده الدينية:

يبدو أن جذور تقديس الماء تعود إلى عصور ما قبل التاريخ، فقد عُثر على آثار في غاية الأهمية بموقع القطار الذي يبعد عن مدينة قفصة بحوالي 18 كم شرقا، ويؤرخ بحوالي أربعين ألف سنة، تتمثل في ركام من أدوات حجرية وشظايا صوانية وعظام حيوانات وأدوات أخرى مختلفة، جُمعت في شكل مخروط يبلغ قطره 140 سنتمترا ويفوق ارتفاعه خمسة وسبعون سنتمترا، وتقع هذه الكومة على عمق سبعة أمتار، أي في مستوى منبع العين التي كانت تجري منها مياه قبل أن تجف، ويبدو أن ساكنة تلك المنطقة قد شيدوا ذلك المعلم الغريب قرب العين، لعبادة الماء أو من أجل القيام بطقوس دينية تهدف ربما إلى المحافظة على جريان مياه العين، التي هي أساس الحياة (انظر الشكل 1) (Hédi & autres, 2010, pp. 18-21).

لقد قدّست الكثير من الشعوب القديمة المياه سواء كانت جارية كالأنهار والوديان والعيون أو راكدة كالبرك، خاصة المياه العذبة لفوائدها الجمة، لاسيما في المناطق الجافة أو شبه الجافة كمنطقة شمال إفريقيا، إذ أن مشكلة المياه كانت مبعثا لقلق وانشغال البشر خصوصا لدى الجماعات الزراعية والرعوية التي هي في حاجة ماسة إليها (Camps, 1995, p. 144).



الشكل (1): معلم القطار لتقديس الماء

Source: (Hédi & autres, 2010, p. 19)

ويبعد الماء لدى بعض الشعوب ذو قدسية، بل ويعتبر بمثابة آلهة غير مرئية، ويتجلى ذلك التقديس بوضوح في الأساطير التي نسجوها حول المياه، والطقوس التي كرسوها لها، وكذلك في المعابد المشيدة إلیها، اعتقادا منهم أن الماء كان وسيلة اتصال مع الآلهة الجهنمية، ولهذا كانت تُرمى بعض القرابين في الأنهار والوديان والعيون ليزداد

تدفقها. (Traian, 2021, pp. 233-237) كما اعتبروا أن الماء بمثابة جوهر حيوي، فيذهب طاليس الميلي (Thalés Milet) مثلاً إلى القول أن الماء "مصدر لكل الأشياء". ولا غرابة أن ترى فيه مختلف الشعوب أنه مخصب ومطهر ونافع للطبيعة وعاملاً مهماً لحياة مختلف الكائنات الحية. (Guérin-Beauvois, 2007, pp. 94-95)، إذ ارتبط عنصر الماء بعدد من المعتقدات الدينية والاجتماعية، وصار مكوناً أساسياً في عملية الخلق.

ومن أبرز الطقوس الدينية اليومية المعروفة لدى الإنسان القديم والمتعلقة بتقديس الماء طقس الاغتسال الجسدي اليومي قبل الدخول للفضاء المقدس وغسل الأيدي خلال الشروع في إجراء الطقوس، ومن أجل ذلك شيدوا النافورات (Nymphées) والبرك أمام أبواب المعابد أو في ساحاتها. (Scheid, 1991, pp. 210-214) واعتقدوا أن الماء الجاري الوسيلة الوحيدة للتخلص من الدنس والأمراض المعدية، وأصبحت الطهارة الجسدية في ديانات كثيرة ضرورة قبيل تقديم القرابين للآلهة، وحتى بعد طبخها وتقديمها. ويتبين لنا الافتتان الديني للرومان بالماء درجة كبيرة كغيرها من الثقافات القديمة، لاسيما أن شعوب البحر المتوسط ومنهم المغاربة القدامى عبر تاريخهم الطويل قد اعتمدوا في معيشتهم في المقام الأول على ممارسة الزراعة المهددة بالحرارة الشديدة في الصيف والتي تضر نمو المحاصيل كالحبوب، فضلاً عن ممارسة نشاط الرعي الذي يعتمد على توفر الكلاً والماء (Traian, 2021, pp. 233-236). ويعتقد بلين الكبير أن المياه يزداد تدفقها بحماية ومباركة الآلهة التي تسكنها (Pline, 1999, pp. XXXI- 4). والتي كانت عبارة عن جنيات مائية غير مرئية في اعتقاد المغاربة القدامى (Camps-Fabrer, 1998, pp. 30-35). وهذا يشير إلى أن الماء في اعتقاد القدامى هبة من آلهة خفية لها القدرة على منحها أو منعها للبشر، وبالتالي يجب إرضائها بالعطايا والذبائح، وقد بقيت هذه المعتقدات استمرارية لحد الآن، بشكل مختلف من منطقة إلى أخرى.

وتعتبر العيون والمنابع لدى المغاربة القدامى ذات قدسية منذ عصور ما قبل التاريخ، ومازال الكثير من الآبار والعيون مقدسة لحد اليوم ونسجوا حولها بعض الأساطير والكرامات (Picard, 1954, p. 6)، ووظفوا الماء كبقية الشعوب المتوسطية، في عدد كبير من القيم الرمزية، وأطلقوا عليه كلمة أمان (Aman) التي تعني الحياة وإمكانية البقاء، وكان يرمز عندهم للاستقامة والنقاء والحقيقة والأمان والخصوبة (Chaker, 1986, pp. 558-559). لهذا كثيراً ما نرى المعابد ومزارات الأولياء والقديسين مشيدة حول العيون والآبار. ومن الصعوبة بمكان معرفة المعتقدات المتعلقة بالماء بدقة خصوصاً المعبودات المائية لديهم في العصور القديمة بسبب نقص الوثائق، ومع ذلك يمكن القول بوجود حس ديني خاص بالأفارقة، ويتعلق الأمر ببعض الطقوس التعبدية والاعتقاد بوجود

جنيات محلية للماء سابقة للآلهة الرومانية (Belfaida, 2011, p. 21). ويبدو أن الأفارقة قد قدسوا المياه خاصة المياه المعدنية المعروفة باحتوائها على الكبريت ذو الخواص العلاجية، وتشير المعتقدات الشعبية أن للمياه وصي يتمثل في جنون مياه خيرة (Mahjoubi, 2000, p. 128).

ومن أهم الآثار الدالة على قداسة الماء في شمال إفريقيا، تلك البقايا التي عثر عليها في قلعة ديميدي (Castellum Dimmidi) وتعرف حاليا بمسعد، والتي تُعتبر بمثابة معبد صغير، وكانت تمارس بالقرب منه طقوس ذات طابع سحري، بحيث تخفي معتقدات محلية منها الاعتقاد بوجود جن ليبي للمياه الشافية والصحية (Picard, 1954, p. 6). ويبدو أن هذه المعتقدات قد ترومنت بوصول الجيش الروماني وموظفو الإدارة الذين استقروا في المنطقة، وتحمل بعض الأنصاب التي عُثر عليها بهذا المكان على إهداءات مكرسة لأبولون إله للشفاء والإله أسكولابيوس رب الطب الذي يشفي المرضى بواسطة الماء، والربة هيغي التي تجسد الصحة، ولا شك أن هذه الآلهة تماثل جنية المياه الشافية لدى سكان المنطقة (Belfaida, 2011, p. 59)، ويؤكد ذلك بنعبو بقوله أن وجود أنصاب مكرسة إلى الإله أسكولابيوس أو أبولون أو هيغي أن الأمر يتعلق بجن أو إله ليبي للمياه الصحية، دمج الرومان مع إله الشفاء أسكولابيوس (Benabou, 1976, pp. 358-362). ولا شك أن قداسة الماء كانت معروفة لدى مختلف الشعوب المتوسطية، وهذا ما نتج عنه اندماج لتلك المعتقدات، وقبولها من قبل الأفارقة، الذين رأوا أنها لا تختلف كثيرا عن معبوداتهم وعن شعائرهم الدينية.

وقد تواصلت عبادة الماء ذو الخواص الطبية حتى بعد انتشار الديانة المسيحية، التي كانت متجذرة في المدن، إذ بقيت لها بعض العادات خاصة في الأرياف، على الرغم من محاربة رجال الدين لهذه المعتقدات الوثنية، ويذكر القديس أوغسطين (354-430م) في هذا الصدد أن السكان في عصره كانوا يذهبون للاستحمام في البحر مثلما يفعل الوثنيون عند الاحتفال بمناسبة الانقلاب الصيفي، كما استعملت الحمامات أحيانا كأماكن للعبادة لدى المسيحيين، لكن الأساقفة حرموها ووقفوا ضد التردد عليها باعتبارها أماكن مختلطة (Belfaida, 2011, pp. 93-94).

وقد بقيت هذه المعتقدات والطقوس متوارثة في الأرياف، وكانت في شكل عبادة الأولياء والقديسين الذين يتميزون بالكرامات والخوارق، وانتشرت انتشارا واسعا في بعض الجهات كمناطق باجة التي عُثر فيها على حمام معدني معروف لدى السكان بحمام سيالة، والذي كان يقصده المرضى طلبا للشفاء، ويرجعون ذلك لبركة الولية الصالحة لالة سيالة، ويقومون بحرق البخور قرب المنبع، ويتصدقون ببعض المال ويشعلون الشموع على شرف هذه الولية (Mahjoubi, 2000, p. 128)، وقد بنوا حول ذلك الحمام معبدا صغيرا

في شكل مزاراة مكرسا لها. ويجدر الذكر هنا أن بعض العيون التي يقصدها المرضى للعلاج من بعض الأمراض مشهورة بالإرادة الخيرة للأولياء الذين يشرفون على تلك العيون، وكانت محل تقدير واحترام منهم، معتقدين أنها تمنحهم الخير والبركة والشفاء حتى من الجنون وداء الكلب (Belfaida, 2011, pp. 54-59). إذ منح الأفارقة للماء المرتبط بالأولياء والقدسين قدرات فاقت الحدود، وهذا لمكانة هؤلاء الأشخاص الذين خلعوا عليهم صفات فاقت صفات البشر العاديين وصلت لحد القداسة.

ومن الطقوس الأخرى المتعلقة بقدسية الماء، أن ساكنة مدينة قابس كانوا قبل إتمام الزواج تقوم العروس بزيارة عين ما وتستحم فيه، وربما يكون أصله يرتبط بالزواج بجن العين الذي تعود جذوره إلى العصور القديمة (Decret & Fantar, 1981, p. 246). كما يحتفل سكان منطقة الجريد بعيد الربيع خلال شهر ماي، فيقومون بطقوس خاصة، منها استحمام النساء بشكل جماعي في الوادي ويغطسن شعورهن، وهن يرددن بعض الأغاني والأهازيج، من أجل تنشيط الخصوبة، وبعد هذا الاستحمام مقدسا ليس لخصوبة النساء فحسب بل وخصوبة الأرض كمصدر لكل الثروات، ويقدمن بعد ذلك بعض القرابين والعطايا البسيطة. ومن أجل تحقيق الخصوبة والرخاء أيضا تقوم النساء بالاستحمام الجماعي وهن عاريات في عيد أواسو (Awussu) خلال الانقلاب الصيفي، وقد أشار القديس أوغسطين أن السكان في عصره كانوا يمارسون عادات وثنية قديمة تتمثل في الاستحمام وهم عراة تماما في مياه البحر اعتقادا منهم أنه استحمام مقدس، وأن مياه البحر لها قيمة سحرية، ولها عدة ميزات منها الحماية من الأمراض والجنون التي تخشى المياه المالحه، لكن بالمقابل يكتسي قيمة خيرة بفضل البركة الخاصة به، ومن أجل أن ترزق الفتيات بزواج (Belfaida, 2011, pp. 61-67). فالماء كان يكتسي فضلا عن القداسة والطهارة، صفات أخرى الخصوبة والرخاء والبركة التي ينشدها السكان من خلال الاغتسال به، في جماعات أو فرادى، في مناسبات خاصة أو جماعية. فأهمية الماء في حياة الإنسان جعلته يبلغ درجة العبادة بل والألوهية.

2- الماء وأبعاده الطبية:

فضلا عن قداسة الماء وأهميته لدى الأفارقة القدامى كما رأينا ذلك، فقد كان للماء أهمية كبرى في الجانب العلاجي والطبي، وفي الحقيقة إننا لا نكاد فصل الجانب الديني عن الجانب الطبي والشفائي فيما يتعلق بالماء، وهذا ما سنلاحظه في أهمية استعمال الماء في علاج بعض الأمراض.

من المعروف لدى القدامى أن الماء ذو خواص علاجية، ومن هنا أدركوا أهميته سواء كان باردا أو ساخنا في العلاج من بعض الأمراض خاصة عندما تكون المياه ساخنة (Belfaida, 2011, p. 58)، ولأهميته الصحية كان الأفارقة ولا سيما أولئك المترومونون

يقصدونه للعلاج من الأمراض الجلدية وآلام الروماتيزم-30 (Camps-Fabrer, 1998, pp. 34)، كما نصح القدماء المرضى بشرب مياه المنابع المعدنية لقوتها وألوهيتها الحامية (Guérin-Beauvois, 2007, pp. 94-95). وقد أقيمت حول العيون مجمعات (Aquae) ذات وظائف متعددة: دينية وعلاجية ورياضية، وكانت غالباً تحت رعاية آلهة الصحة (Jouffroy, 1990, p. 87). وقد نصح الأطباء منذ القديم المرضى بالتداوي بالماء، من خلال الاستحمام في بعض الوديان والعيون والبحر وخاصة في الحمامات التي تزرع بها منطقة المغرب القديم ومنها إفريقيا البروقنصلية، في حين منعوهم من الذهاب لبعض الحمامات التي تكون مياهها راكدة، والتي تكون غير نظيفة وتسبب لهم بعض الأمراض (Traïan, 2021, p. 208). خاصة البرك والمستنقعات المتسخة التي اعتقدوا أنها نجسة ومسكنا للأرواح الشريرة، ومن هنا فإن المياه النظيفة كانت شرطاً رئيسياً للاستشفاء من الأمراض.

ويبدو أن تردد السكان على تلك المجمعات الدينية والصحية يعود لفترة قديمة جداً وإن كانت أقل تطوراً وتنظيماً، وبعد ذلك انتشرت بشكل أكبر في المناطق الحضرية بفعل التأثيرات الرومانية، إذ حوّل المعمرون الرومان هذه العيون إلى مراكز فخمة ذات تأثيرات معمارية رومانية واضحة لاسيما النومفيات التي تعود أصولها إلى الحضارتين الإغريقية والرومانية (Jouffroy, 1990, p. 95).

ويجدر الذكر أن القيام بالطقوس الدينية في النشاط الصحي للحمام المعدني يعتبر عملاً فردياً، حيث يرجو المريض الشفاء لنفسه أو لشخص مقرب منه أو الشكر على الشفاء وهذا حسب النقوش التي عثر عليها. وتعتبر تلك المجمعات مكرسة لآلهة الشفاء أو جنيات العيون (Guérin-Beauvois, 2007, pp. 112-113).

ويتضح لنا من خلال البقايا الأثرية التي عثر عليها أن أغلب الحمامات المعدنية المعروفة قد تم تشييدها خارج المدن، وتم بناؤها على العيون والمنابع، وتكتسي مياهها أهمية سحرية وعلاجية، ولهذا يقيم فيها النساء، وكل من يبحث عن العلاج. وتوجد في إقليم إفريقيا البروقنصلية عدة عيون ومنابع ساخنة، كانت تستغل منذ القديم ومازال بعضها مستغلاً حتى الوقت الحاضر (Jouffroy, 1990, pp. 88-89). ومن بين أهم المراكز المعدنية العلاجية التي كان تقصده ساكنة المنطقة من أجل العلاج من بعض الأمراض الجسدية، نذكر مجمع (Aquae Thibiltanae) الذي يتميز بمسبحه الدائري ويعرف حالياً بحمام المسخوطيين، ومجمع (Aquae Fluvianae) الذي اكتشف به على إهداءات لنومفيات (حوريات المياه)، وتماثيل للآله أسكولابيوس والربة هيغي، ومجمع (Aquae Persianae) التي وصفه أبوليوس المادوري (125-180م) وذكر أنه قدم إليه ليعالج نفسه من ألم المفاصل، كما ذكر أن الأفارقة كانوا يضيفون الماء الدافئ أو الساخن للخمر

المعتق للحصول على دواء فعال، ويبدو الاستشفاء لا يقتصر بالمياه الساخنة فقط بل حتى بالمياه الباردة، فمثلاً عندما مرض الإمبراطور الروماني أوكتافيوس المعروف بأغسطس (27 ق.م-14م) لجأ للاستشفاء بالمياه الساخنة لكن دون فائدة، فنصح الأطباء بالاستشفاء بمياه باردة ففعل ذلك وتحسنت حالته وشفي (Belfaida, 2011, pp. 86-88). ومن أهم المجمعات الأخرى نذكر مجمع ألبولاي (Aquae Albulae)، الذي تحدث عنه الجغرافي الإغريقي سترابون وأكد على خواصه الطبية، وذكر أن مياهه المتجمدة تنبع من عدة عيون وتشفى من عدة أمراض، فضلاً استخدام مائها في الشرب والاعتسار (Strabon, 1880, pp. V-3-11). وقد ساهم غنى منطقة إفريقيا البروقنصلية بالعيون الساخنة في تشييد الحمامات على غرار الحمامات الرومانية للمعمرين الرومان وأفراد الجيش، كنوع من الرفاهية والتسلية وتحقيق المتعة والاستطباب، وصارت تلك الحمامات كمجمعات ذات أبعاد اجتماعية وثقافية ورياضية، فضلاً عن كونها محطات صحية.

ومن أمثلة تلك المحطات الصحية، نذكر مدينة لامباريس شيد السكان على عين ذات مياه ساخنة حماماً صحياً، وبالقرب منه بني معبد مكرس للإله أسكولايوس، وكان تقصده النساء العاقرات للاستحمام من أن أجل يرزقن بأولاد، كما يقصده الرجال المصابون بالأمراض النفسية والعصبية، وفي الحقيقة فإن التضرع بهذه المياه ربما يُفسر بالعلاج أو الترويح عن النفس بعد العلاج، ولقد تظن القدماء لقيمة هذه العيون، وخاصة المياه الجارية، فاعتادوا على التوجه إليها كلما سنحت لهم الفرصة (Belfaida, 2011, p. 87). ولقد ساهم انتشار الأوبئة في العالم القديم في زيادة عبادة آلهة الصحة كآسكولايوس وهيجي وأبولون، وبنيت لها المعابد، واعتبرت المياه الجارية صحية يقصدها المرضى للاستشفاء (Traian, 2021, pp. 237-238). ونلاحظ أن تلك الحمامات قد نسبت دائماً لأحد آلهة الشفاء والصحة ليمنح الشفاء لمريديه، وهذا يذكرنا تلك العيون والآبار المنسوبة للأولياء الصالحين خلال الفترة الحديثة، فهل يعني أن تلك الرواسب قد تأسمت وبقيت مقبولة لدى السكان؟

ومن طقوس الاستشفاء في هذه المجمعات أن ينام المرضى داخل السور المقدس للمعبد، ويقصون للكهنة ما رأوه في أحلامهم بعد الاستيقاظ من النوم، ويقوم الكهنة الأطباء بتفسيرها لهم، ومن خلالها يتم تشخيص الأمراض وتحديد وصفة الدواء (Janon, 1985, p. 96).

ويجدر الذكر هنا أن توزيع هذه المجمعات غير متوازن بين مناطق المغرب القديم، وغالباً ما تتواجد على العيون ذات المنابع الساخنة، كما أنها مرتبطة أيضاً بالوجود الروماني المدني والعسكري، كما أن أغلب المجمعات المائية الإفريقية مرتبطة بشكل

وثيق بشبكة الطرقات، غير أننا نجهل تاريخ تشييد الكثير منها، ولا نستبعد أن وجودها كان وراء إنشاء تلك الطرقات، وقد تطورت هذه الحمامات-المحطات الطرقية، وصارت بمرور الزمن عبارة عن تجمعات سكانية متواضعة عموماً. إلا أن هذه المجمعات الصحية لم تزودنا بمادة أثرية كثيرة من غير بعض النقوش وتمائيل الآلهة المعبودة، أو على الأقل لا نعرفها، وهذا عكس ما نجده في المجمعات الإيطالية والغالية. ويحتوي مجمع (Aquae Regiae) بهنشير خطارة بتونس على ورشات لصنع القناديل المزينة بصور الإلهين المصريين إيزيس وسيرايس، ومن الناحية الهندسية فمخطط البناءات غالباً ما يتبنى النموذج الروماني المعروف. (Jouffroy, 1990, pp. 95-96)، وبالتالي فإن انتشار تلك المراكز الدينية والصحية بذلك الشكل يعود للرومان الذين أدخلوه بذلك التطور، لكن هذا لا يعني جهل سكان المنطقة بأهمية الماء في الاستشفاء، وهذا لا شك أنه أحد الأسباب التي دفعتهم لعبادته.

3- أهم الآلهة المرتبطة بالماء:

من المعروف أن الأفارقة القدامى قد عبدوا الكثير من الآلهة المحلية والأجنبية، ومنها تلك الآلهة المرتبطة بالماء، أملاً في استمرارية تدفق هذه النعمة، واعتقاداً منهم أن لها القدرة على شفاء المرضى من الأمراض، ولا شك أن بعض هذه الآلهة تعود أصولها لعصور ما قبل التاريخ وبقيت متوارثة لدى ساكنة المنطقة عبر الأجيال، كما عبدوا بعض الآلهة الأجنبية التي دخلت عبر التأثيرات الحضارية مع الشعوب المتوسطية أو عبر الاحتلال، قادمة من فينيقيا ومصر وبلاد الإغريق والرومان، وسنحاول فيما يلي التعريف بأهمها.

3-1. الإله ماكوركوم (Macurgum):

نرى على نقش الآلهة السبعة الذي عثر عليه في مدينة باجة سبعة آلهة منها الإله ماكوركوم إله الطب جالسا ويحمل بيده اليمنى راية (Volmen)، ويحمل بيده اليسرى عصا تلتف حية (أنظر التعليق رقم 1) (D'Huy, 1985, pp. 120-128) (Quellec, 1985, p. 95) 2014، حولها (أنظر الشكل 2) (El Bouzidi & autres, 2011, p. 105). وهي صفة مميزة للإله الإغريقي الروماني أسكولابيوس إله الصحة، وهذا يشير لوظيفته الطبية، ومن هنا ندرك أن الأفارقة قد عرفوا آلهة للصحة والشفاء قبل وصول الرومان للمنطقة وتأثرهم بهم، وبالتالي فإن ماكوركوم إله الصحة والشفاء لا تنقصه الأصالة المحلية (Benseddik, 2010, pp. 15-16).

الشكل (2): نقيشة الآلهة السبعة



(Camps, Qui sont les Dii mauri ?.In: Antiquités africaines, 1990, p. 37)

2-3. الجنيات (génies):

اعتقد الأفارقة في وجود جنيات محلية تسكن الكهوف والصخور والجبال وبعض الأشجار منذ العصور القديمة، ولها كذلك وظيفة حماية كل نقاط المياه الجارية خاصة تلك المتعلقة بشفاء المرضى (Benseddik, 2010, pp. 15-16). ويرى الكثير من المؤرخين أن النوميقيات (حوريات الماء) ونبتون وبعض الآلهة الأخرى كأسكولابيوس وهيبي وسيرايس في حقيقتها جنيات ومعبودات محلية أصيلة في المنطقة ترومنت خلال عصر الاحتلال الروماني، لاسيما أن العيون تمنحهم الخصوبة للإنسان والحيوان، ويقصدها الكثير من أجل العلاج من بعض الأمراض الجلدية (Decret & Fantar, 1981, p. 248).

3-3. الإله نبتون (Neptune):

يعتبر الإله نبتون من أبرز الآلهة الرومانية التي وفدت لمنطقة شمال إفريقيا، فهو يماثل الإله الإغريقي بوزيديون والإله الفينيقي يام (Yam) (Le Glay, 2006, p. 84). وهو إله للبحر في المناطق الساحلية، أما في المناطق الداخلية كالهضاب العليا التونسية والمنطقة القسنطينية فهو إله للعيون والينابيع (Leschi, 1947, p. 98)، ويجدر الذكر هنا أن الإله نبتون كان أكثر آلهة الماء انتشارا في إفريقيا خلال العهد الروماني، حيث ورد اسمه على أكثر من 54 نقشا، كما برز على الكثير من مشاهد الفسيفساء وأقواس النصر والمباني والمنحوتات واللقى الصغيرة والتماثيل والقناديل (Bourgeois, 1993, pp. 19-24). ولا شك أن هذا الإله يتعلق بعبادة الماء والينابيع، التي تعود أصولها إلى الفترة ما

قبل الرومانية لآلهة أو جنون محلية، وزادت عبادته خلال فترة الاحتلال الروماني وارتبطت بالبروجوازية البلدية (Ben Baaziz, pp. 107-108).

ولقد شيدت عدة معابد كرسيت للإله نبتون، ويبلغ عددها ثمانية معابد في شمال إفريقيا، منها واحد في مدينة تبروسكوم نوميداروم (Thubursicum Numidarum)، الذي يوجد داخل مجمع، ويحتوي على أحواض ذات أشكال مختلفة، ويلعب دور المسبح و الخزان، وقد بني على منبع عين اليهودي، كما توجد معابد أخرى بشولو ومكثر ودوقة، ويعتبر معبده المشيد بلمباز على عين درين من أهم معابد نبتون، وكان محل عبادة منذ سنة 138م حسب بعض النقوش التي عثر عليها في عين المكان، وقد شيد الإمبراطور الروماني أنطوان التقي (Antonin le pieux) ما بين 148 و158م معبدا لهذا الإله، وتم توسيعه من طرف الإمبراطور مارك أورال (Marc Aurèl) سنة 174م (Ben Baaziz, pp. 103-111).

كما اكتشف بعين الحمادنة غرب تونس بالقرب من تبسة على الحدود الجزائرية على نقش يصور الإله نبتون وهو يحمل الشوكة الثلاثية بيده اليمنى، ويقف على قاعدة تلتف حولها حية التي ترمز للشفاء، وهو هنا إله العيون والمنايع والصحة، حيث يقطن الأنهار والوديان والعيون، ومن المعروف أن أغلبية المعالم المكرسة للإله نبتون قد استخرجت من المناطق الداخلية وليس الساحلية (Benseddik, 2010, p. 16).

ويعتبر نبتون إفريقيا ليس تجسيدا للإله بوزيدون الإغريقي ولا نبتون الروماني، وإنما إسقاط لهما لوجود تشابه في الوظيفة، فانتشار عبادته الواسع في المناطق الداخلية في مكثر ودوقة وتالة وحمام المسخوطين وكالما وسيقوس وسيرتا ولامبزييس وعين درين وعين الحمادنة... وفي مناطق أخرى حسب النقوش التي عثر عليها وتؤكد تجذر عبادته، كل هذا ينفي أن يعتبر كإله إيطالي دخل مع الجيش الروماني، لكنه إله إفريقي للعيون والصحة، بحيث حافظت العيون على أسمائها القديمة وآلهتها الحامية التقليدية ولهذا تطلق عليه نصيرة بن صديق اسم "نبتون الإفريقي" (Benseddik, 2010, p. 17). فهذا الأخير في الحقيقة هو إله المياه الجارية وحامي العيون والمنايع، ولها طابع إفريقي خاص لهذه العبادة المكرسة لنبتون (انظر الشكل 3) (Leschi, 1947, p. 98).



الشكل (3): الإله نبتون يقود عربة ذات حصانين

Sousse: (Aounallah, 2018, p. 24)

4-3. الإله أسكولابيوس (Esculape):

هو الإله المنقذ والقوي ورب الصحة في الديانتين الإغريقية والرومانية، حيث يقصده الأفراد لطلب الشفاء من الأمراض، انتشرت عبادته في منطقة شمال إفريقيا بفضل الجنود الذين نقلوا عبادته في المناطق التي سيطر عليها الرومان (Benseddik N. , 2008, p. 119). فكان هذا الإله واحدا من الآلهة الشافية المعبودة في منطقة إفريقيا البروقنصلية، ومنها في جبل أوست (Oust) الواقع جنوبي تونس العاصمة بحوالي 35 كم، حيث بني فيه معبد على عين تنبع منها مياه ساخنة، كما بني المسيحيون فيما بعد بالقرب منه حوضا مائيا للتعميد (Bourgeois, 1993, p. 24). ولم يكن هذا الإله الإغريقي الروماني إلا اندماجا للآلهة المحلية المتعلقة بالشفاء، لا سيما وأن هناك جن محلي من هذا النوع مرتبط بعبادة المياه (Bel Faïda, 2011, p. 86). كما شيد على شرف هذا الإله (أسكولابيوس) معبد في مدينة لامبزيس فوق هضبة تطل على هذه المدينة على منبع عين درين (Ain Drinn) الذي يزودها بالمياه، ويستفيد هذا المعبد من عبادة منظمة مرتبطة بحمام معدني صحي ذو مياه ساخنة (انظر الشكل 4) (Benseddik, 2010, p. 16).



الشكل (4): الإله أسكولابوس بمتحف لومباز

Source: (Janon, 1985, p. 71)

3-5. النومفيات (Nymphes):

هن مجموعة من الربات في الميثولوجيا الإغريقية والرومانية، وكانت لكل ربة منهن روحا حارسة لشيء في الطبيعة كمنبع أو شجرة أو صخرة أو حقل، والواقع أن النومفيات ترمز للقوى الطبيعية التي تسيطر على النمو والخصوبة والتي تمنح القيمة الخيرة والوقائية، ولهن القدرة على الحماية من القوى الشريرة، لم تكن لهن أهمية أدبية كبيرة، لكن عبادتهن لعبت دورا عظيما في حياة البسطاء (Schmidt, 2001, pp. 136-137)، وينشد عباد النومفيات التطهر من الشرور والآلام الجسدية والشفاء من الأمراض باستعمال المياه، ومن خلال النقائش المكرسة للنوميات نلاحظ أنه لا يوجد أي نقش يتضمن صفة محلية، لأن الاسم اللاتيني نومفي المستخدمة يؤكد أصوله الرومانية، وهذا يعني أن الإهداءات صادرة من شخصيات تمثل الإدارة الرومانية أو على الأقل من أشخاص مرومين تبناوا الاسم اللاتيني ليعني القوة الإلهية للعيون العلاجية (Bel Faïda, 2011, pp. 42-48). ومن جهة أخرى فمن الملاحظ أن الإهداءات المكرسة للنومفيات بمنطقة شمال إفريقيا نادرة جدا (انظر الشكل 5) (Bourgeois, 1993, p. 19).



الشكل (5): نومفية على فسيفساء سوسة

Source: (Barbet & Parzys, 2015, p. 88)

6-3. سيرابيس (Sérapis):

هو أحد أهم الآلهة المصرية التي عبدت في عهد البطالمة، وكان مركزه الرئيسي في مدينة الإسكندرية، وانتشرت عبادته في حوض المتوسط بدءاً من بلاد الإغريق منذ القرن الرابع قبل الميلاد، ومنها انتقلت إلى إيطاليا منذ القرن الثاني قبل الميلاد، وعرف تغلغلاً كبيراً خلال العصر الإمبراطوري (27 ق.م-429م)، ومنها دخلت عبادته إلى منطقة شمال إفريقيا، ومن أهم صفاته منح الشفاء للمرضى (Briaud, 2017, pp. 23-48)، فقد عثر في مجمع أكوا فلافيانا (Aquae Flaviae) بضواحي ماسكولا (Mascula) خنشة حالياً على نقيشة تؤرخ لزيارة الإمبراطور سبتيموس سيفيروس (Septime Sévère) في حوالي 203 م وتنص هذه النقيشة السلامة للإمبراطور المقدس أسفل قدم الإله سيرابيس (Sérppis)، وربما جاء هذا الإمبراطور من أجل العلاج من مرض ما خلال إقامته في مدينة تاموقادي (Thamugadi) وزيارته لمجمعها الأنف الذكر. ويؤكد حضور الإله سيرابيس (Sérapis) في هذا المجمع، على أنه واحد من أهم آلهة الشفاء المعبودة في إفريقيا البروقنصلية، حيث يأتي إليه المرضى لتلقي العلاج والخصوبة (Leschi, 1947, pp. 95-98).

الخاتمة:

وخلاصة لما سبق يمكن الخروج بالنتائج الآتية:

- نظراً لأهمية الماء في حياة الإنسان اليومية واستعمالاته المتعددة فقد اكتسب الماء طابع القداسة، ولا نستبعد أن تعود جذور تلك القداسة إلى عصور ما قبل التاريخ على الرغم من قلة الدلائل الأثرية التي تؤكد ذلك.

- بها أن منطقة شمال إفريقيا تتميز بمناخ جاف في أغلب شهور السنة، وحاجة السكان الهامة للماء، ولا سيما وأنهم يعتمدون في معيشتهم على الزراعة والرعي، كل ساهم في تقديسهم لهذا الشريان.

- لقد تجلت قداسة الماء في تجسيده في آلهة، وإن كنا لا نعرف إلا الإله ماكوركوم رب الطب لدى المغاربة القدامى والذي تذكره نقيشة الآلهة السبعة بباجة، ومن هنا ندرك أن الأفارقة قد عرفوا آلهة الصحة والشفاء قبل احتكاكهم بالرومان، وبالتالي فإن آلهة الصحة الإفريقية لا تنقصها الأصالة المحلية.

- وفضلا عن الإله ماكوركوم، فقد اعتقد السكان في وجود جنون (Génies) وظيفتهم حماية العيون والمنايع المائية، خاصة تلك المتعلقة بعلاج المرضى، ومنح الحماية والبركة والشفاء لمرتادي تلك العيون المائية.

- ومن جهة أخرى، يمكن القول أن الآلهة الإغريقية والرومانية المتعلقة بالصحة والتي عبدها المغاربة القدامى وبرزت على الأنصاب والنقوش كنبتون وأسكولايوس وهيي وسيرايس والنومفيات، هي في الحقيقة معبودات محلية لا نعرف تسمياتها الأصلية مائلها السكان مع الآلهة الأخرى كنوع من الإسقاط في الوظيفة وبعد التوفيق بينهم لينسجم مع معتقداتهم.

- كما يجدر الذكر هنا أن الكثير من تلك المعتقدات الوثنية قد بقيت متوارثة في بعض المناطق خاصة في الأرياف والمناطق الداخلية، على الرغم من محاربتها من طرف رجال الدين المسيحيين، واستمرت تلك العادات حتى بعد انتشار الإسلام، ومنها زيارة بعض العيون والمزارات والحمامات، حيث يرتادها كل من يرغب في الزواج أو الإنجاب وطرد النحس، أو الشفاء من مرض مستعصي.

التعليق:

1. تُعدّ الثعابين حيوانات مَقْدَّسة لدى الأفارقة القدامى لديهم منذ عصور ما قبل التاريخ كما تشير إلى ذلك بعض النقوش الصخرية، ومن أمثلة ذلك نذكر مواقع شمال فزان وفي تيمسيت قرب غدامس وكذلك في منطقة الجنوب الوهراني، وفي الصحراء الوسطى بواد جرات حيث صُوِّرت أفعى كبيرة يرى لوكيلاك* أنها كانت محلّ عبادة، وترمز الأفاعي القرناء لمنايع الماء الدائمة الجريان التي كان السكان في أمسّ الحاجة إليها في عصر عرف بداية الجفاف الذي شهدته منطقة الصحراء على وجه الخصوص.

قائمة المراجع:

- Aounallah, S. (2018). *Le musée archéologique de Sousse*. Contraste éditions.

- Barbet, A., & Parzys, B. (2015). D'Hadrumetum, Néréides sur monstres marins essai de restitution. *revue tunisienne d'archéologie*, (2).
- Bel Faïda, A. (2011). *L'eau au Maghreb antique*. Rabat: Rabat Net.
- Ben Baaziz, S. (s.d.). Les temples de Neptune en Afrique romaine. *revue AFRICA* (XXVI).
- Benabou, M. (1976). *La résistance Africaine à la romanisation*. Paris: François Maspero.
- Benseddik, N. (2008). L'Asclépieum de Lambèse: Esculape, Hygie, Jupiter... et le légat de la IIIe Légion Auguste. In: Lieux de cultes: aires votives, temples, églises, mosquées. *IXe Colloque international sur l'histoire et l'archéologie de l'Afrique du Nord antique et médiévale (Tripoli, 19-25 février 2005) Préface de Jean-Luc Sibiude, ambassadeur de France en Libye*. Paris: Éditions du Centre National de la Recherche Scientifique.
- Benseddik, N. (2010). , *Asklépios, Eshmun mais encore...*, *Bollettino di Archeologia on line I 2010/ Volume speciale A / A2 / 3*. Récupéré sur www.archeologia.beniculturali.it/pages/pubblicazioni.html.
- Briaud, S. (2017). Isis et Sérapis: pour ou contre Rome. Le conflit littéraire. *Cahiers d'histoire*, 34(1).
- Camps, G. (1990). *Qui sont les Dii mauri ?*. In: *Antiquités africaines* (Vol. 26).
- Camps, G. (1995). *Les Berbères, mémoire et identité*. Paris: éditions errance.
- Camps-Fabrer, H. (1998). «génie», *E.B. in XX*. Edisud: Aix-en-Provence.
- Chaker, S. (1986). «Aman eaux », in *I*. Edisud: Aix-en-Provence.
- Claude Bourgeois. (1993) . *Note sur le culte de l'eau en Afrique*. In: *Bulletin Monumental* . (المجلد 151)
- D'Huy, J. (2014). *Une méthode simple pour reconstruire une mythologie préhistorique (à propos de serpents mythiques sahariens)*, *Cahiers de l'AARS*.
- Decret, F., & Fantar, M. (1981). *L'Afrique du nord dans l'antiquité*. Payot, Paris.
- El Bouzidi, S., & autres. (2011). *Religion et sacré chez Imazighen d'après les sources épigraphiques*. Rabat: institut royal de la culture amzighe.
- Guérin-Beauvois, M. (2007). Les aquae: sujet médico-religieux ou thème littéraire. *Essai d'interprétation*. In: *Bains curatifs et bains hygiéniques en Italie de l'antiquité au Moyen Âge*.
- Hédi, S., & autres. (2010). *histoire général de la Tunisie* (éd. Sud). Tunis: L'antiquité.
- Jouffroy, H. (1990). Les Aquae Africaines, les eaux thermales et les cultes des eaux en Gaule et les provinces voisines. *Actes du colloque*. Caesarodunum.
- Le Glay, M. (2006). *Le paganisme en Numidie et dans les Maurétanies sous l'Empire romain: état des recherches entre 1954 et 1990*. In: *Antiquités africaines*.

- Leschi , L. (1947). *Découvertes récentes à Timgad: Aqua Septimiana Felix. In: Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, 91^e année.*
- M Janon.(1985) . *RecherchesàLambèse III: Essais sur le temple d'Esculape. In: Antiquités africaines.*
- Mahjoubi, A. (2000). *villes et structures urbaines de la province romaine d'Afrique.* Tunis: centre de publication universitaire.
- Picard, G.-C. (1954). *Les religions de l'Afrique Antique.* Paris: libraire Plon.
- Pline, l. (1999). *histoire naturelle, éditions et choix d'Hubert Zehnacker.* Gallimard, paris: collection folio classique.
- Quellec, J.-L. (1985). *Nouvelles gravures rupestres du Wâdi Bûzna (Wâdi-L-Ajâl, Libye).* In: *BSPF*(Vol. 82).
- Scheid, J. (1991). *Sanctuaires et thermes sous l'Empire. In: Les Thermes romains. Actes de la table ronde organisée par l'École française de Rome (Rome, 11-12 novembre 1988).* Rome: École Française de Rome.
- Schmidt, J. (2001). *Larousse, Dictionnaire de la Mythologie grecque et romaine.* Paris: éditions France Loisirs.
- Strabon. (1880). *Géographie, trad Amedée Tradien.* Paris: éditions Hachette.
- Traïan, B. (2021). *Les cultes des eaux douces à Rome d'après les sources de la république tardive et du Haut-Empire: une idiosyncrasie culturelle. Thèse de doctorat en histoire.* Université de Montréal.